الظـــلم

(للدكتور مصطفى كمال وصفى)
المستشار المساعد بمجلس الدولة

شهد الله على الناس بقوله « **ان الانسان لظلوم كفار** »

فالظلم طبيعة فى الانسان ·

ومافتىء الناس منذ بدء الخليقة يظلمون أنفسهم ، ويظلمون بعضهم بعضا ، وما انفكوا عن ذلك يتقاتلون ويتصارعون ـ الا من رحم ربه ـ وتستبد بهم الأهواء والأطماع فينسون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ويظلمون ·

واذا صح قول كثير من علماء الصوفية ـ عن تحقيق ـ بأن الله خلق الناس ليشهد مجالى حسنه ، وأمدهم بروح من أمره ، وألبسهم من صفات ذاته ، فمن أين لهم بالظلم وكيف اكتسوا هذه الطباع المظلمة القاتمة وفارت نفوسهم بالأثم والعدوان ؟ ·

كان هذا القول مشكلا عند كثير من الناس · وكذبوا به ماقاله الصوفية فى هذا الشأن · لأن الله ليس بظلام للعبيد وأنه قد حرم الظلم على نفسه · ولذلك نفوا هذه الصلة الربانية بين الله والناس مادامو هؤلاء ظلمة بطبعهم ·

وكان ذلك أيضا مدعاة لكثير من التصور المشوه فى شئون العقائد · وبرز ذلك فى بعض الأديان القديمة بالقول بأن ثمة الاهين أحدهما للخير والآخر للشر ، أو الى القول بأن ثمة عالم نورانى خلقت منه الطبائع الطيبة ، وآخر مظلم خلقت منه الطبائع الشريرة · وأن مستقر هذه الاخيرة هو ذلك العالم المظلم وهو الجحيم ·

ولكن لاشك أن ذلك كله مفارق للوحدانية التى هى أساس الاسلام · ولاشك أيضا أنه لا اشكال فى الأمر بل حله فى منتهى البساطة والسهولة

فالواقع أن الله سبحانه وتعالى هو الجامع للمثل العليا كلها · ومن ضمن كمالاته سبحانه وتعالى ماهو مضاد لبعضهم لأن الكمال لايكون الا بالجمع بين النقائض · فهو النافع الضار الحى المميت المعز المذل · فاذا جمع سبحانه وتعالى الى جانب صفات رحمته ورأفته وكرمه وجماله ، صفات أخرى من قهره وجبره وعزته وكبريائه وجلاله ، لاقت به هذه الكبرياء وهذا الجلال ولم يكن بها ظالما ، ولاق أن يكون كذلك مع جميل فعاله وكمال تصرفه ·

أما الانسان ، فاذا اتصف بالكبر والقهر والجبر ، على عجزه وسوء فعاله ونقصه ، فانه يكون بذلك ظالما .

ومن هنا جاءت صفة الظلم فى بنى البشر . اذ أن العجب والكبر والقهر من أقبح الصفات اذا بدرت عن ناقص جاهل سىء العمل . بينما هى غاية الجمال والرونق اذا بدت من ذى الجلال والاكرام رفيع الدرجات المتكامل بذاته المتعال .

* * *

فالظلم لايعتبر صفة فى ذاته ، ولكنه نتيجة لعدم التناسب فى الصفات ومرجعه فى الانسان الى تطاوله وتعاليه بغير استحقاق لذلك ، ومع ماهو عليه من سوء الفعال وقبح العمل .

ولامفر اذن من أن يكون الانسان ناقصا فى صفاته فشتان بينه وبين الكمال المطلق المجرد ، ولاسبيل له الا بلوغ درجات فى مدارج الكمال الانسانى فحسب ، ولذلك فمن المحتم عليه أن يكون غير كامل الفعال .

فالانسان بطبيعته مقيد بحاجاته الدنيوية التى يألم اذا لم يشبعها ولابد له من الجوع والتعب والمرض وغير ذلك بسبب طبيعة تركيبه . وهو اذا استبدت به احدى هذه النوازع صرخت فى نفسه حيوانية عارمة ، يعمى بها عن كل شىء ، ويغدو مضطرا لتسكين هذه النازعة بأى شكل ، ولو اغتصب لقمة أخيه أو قتله . فهو بطبيعته مقهور بحاجاته . ولو كان غنيا ، لكان حميدا فى فعاله وللاق به أن يكون قاهرا متكبرا .

ويستطيع الانسان أن يكبح جماح أطماعه وشهواته لحد كبير بالترويض والسلوك . وعند ذلك يستطيع أن يكون أحسن فعالا وأبعد عن الظلم ، ولو أن ذلك من أشق الشعور على نفسه ، وحق وصفه بأنه الجهاد الاكبر كما قال رسول الله صلى عليه وسلم . فشأنه كفطام السبع عن الدماء واللحوم والزامه أكل الأعشاب والنبات .

ولكى يوصف العمل بأنه بعيد عن الظلم ، وبأنه عمل صالح ، وجب أن يكون مستقيم الهدف اذا قصد الانسان به ايثار نفسه على غيره بلا حق ، واعلاء نفسه وارضاء شهواته وأطماعه .

فمثل هذا العمل عدوان على الغير . وان لم يكن كذلك فهو ظلم للنفس من باب أنه يقوى حيوانيتها ويروضها على أسباب الثورة الحيوانية والانطلاق بعد ذلك فى طريق الاغتيال والافتئات .

فالمفرط فى الطعام أو الشراب ظالم لنفسه . وان لم يظلم غيره مباشرة . والمنهمك فى ملاذه المنطلق ورائها كذلك . لأنه يمهد لنفسه سبل الظلام

والاسفاف . وكذلك الحقير الذليل للناس والمتبطل الكسول والقاعد عن الصالح .

كل أولئك يظلمون أنفسهم لما يعرضهم للحقد والحسد والبغضاء . فضلا عن انهم يعتدون على الصالح العام كمجموعة ، بالاضعاف من عناصره وموارده وباسقاط أنفسهم من المنتجين فيه .

أما الهدف الذى لابد أن يرعاه الانسان فى عمله ولا يكون ظالما ، فهو قصد وجه الله وحده فى العمل . لقوله تعالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** . »

وما دون هذا الهدف شرك . ولذلك قال الله تعالى فى محكم آياته ، « **ان الشرك لظلم عظيم** » .

فهذا الهدف الأسمى الأعلى ، هو جماع جميع المصالح . وقسمة عادلة بين المصالح المتباينة التى تعج بها الحياة . فاذا كان الأمر لله حقق فى الوقت ذاته كافة ما دونه من مصالح . فيكون فى مصلحة الفاعل نفسه ، وتوازن دقيق بين المصالح المتجاذبة آلتى تحيط بالموضوع .

والسبب فى ذلك هو أن الله هو المثل الأعلى . فيندرج تحته ماهو فى صالح النفس وصالح الأهل وصالح الوطن وصالح الانسانية . أما اذا استهدف الانسان صالحا أدنى ، فان عمله لايكون جامعا لرعاية مختلف الاهداف ، عادلا بين جميع المصالح . فاذا كان هدف الانسان من عمله ، نفسه دون غيرها . جاز له فى ذلك أن يضر بغيره كاهله وولده وسائر الناس ولا يبالى . وهذا ظلم وسوء فعل . فاذا اعتلى بهدفه عن نفسه ولم يجاوزه الا لذويه الاقربين ، جاز له أن يضر سائر مواطنيه وغيرهم من الناس . واذا اعتلى بهدفه الى حد قصد الوطن فحسب ، جاز له أن يضر سائر الناس ولو كانوا من أهله وعشيرته ، الا أنهم على جنسية غير وطنه . واذا ارتفع الى حد رعاية الانسانية كلها جاز أن يضر بسائر الموجودات من غير الناس . واذا راعى الله فى أفعاله راعى جميع ما عداه وحقق جميع المصالح فى الوقت نفسه . فلا يكون ظالما .

ولا شأن للانسان ، فى قصده وجه الله فى عمله ، الا أن ينفذ ما أمره به وأن يمتنع عما نهى عنه ، وذلك ثقة منه بأحكام الله وأنابه منه اليه ، وأن ماأمر الله به هو الخير المطلق لأن « لله المثل الأعلى » .

حتى ولو كان ذلك ظاهره العدوان على الغير . فما دام لوجه الله امتنع أن يكون ظلما .

فالقاضى الذى يحكم باعدام القاتل ليس ظالما ولو سلب المحكوم عليه حياته . وهو ليس متجردا من الرحمة ، مادام قد تحرى الاسباب وأتى ذلك على علم . فالله عز وعلا قد وصف الخضر بأنه رحمة وعلمه من لدنه

علما ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الرحمة من أن يخرق السفينة ويقتل الغلام .

وكذلك المجاهد فى سبيل الله بالقتال . فهو لايكون بذلك ظالما بالنظر هدفه ونتيجة عمله . وقد غرس فى النفوس حب القتال والحرب لقوله تعالى (« **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ») وقوله : « **كتب عليكم القتال** » . فكان لابد من أن يأمر بألا نستنفذ هذه الطاقة القاهرة فى النفس البشرية الالوجهه ولصالحه الذى هو مناط الصوالح جميعها ومعيار تحقيقها على تباينها . ولو لم يستنفد الانسان هذه الطاقة المحتومة فى سبيل الله لأستنفدها فى سبيل آخر ، كما هو الحال فى المصطرعين على الاستعمار ونشر النفوذ وغيره مما اتصفت به حروب المسلمين .

ومن قبيل حسن الفعل ، الذى يخلصه من طابع الظلم ، مناسبته لظروفه ، وملائمته ولياقته للحال التى صدر فيها لقوله عليه الصلاة والسلام « المؤمن كيس فطن » أو كما قال . فلا يجوز للقادر الغنى أن يماطل مدينه ويؤجل الدفع بلا مبرر لقول الرسول صلوات الله عليه مطل الغنى أو القادر ظلم (أو كما قال » ولا أن يرهق الدائن مدينه المعسر بالمطالبة لقوله تعالى « **وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة** » كما لا يجوز أن يزيد الشخص تكاليف المكدود أو المتعب أو المحرج دون شعور بحالته بل يجب على المؤمن أن يكون رقيق الشعور حسن الادراك . والا يكون أنانيا بليد الحس فاقد الذوق . فذلك كله ظلم وان كان دقيقا خفيا .

ومن أمثلة الظلم الخفى أيضا أن يصدر الفعل عن الانسان قاصداً به وجه الله ، ولكنه ينحرف عن الغرض الذى يريده الله خاصة ، الى غرض آخر لايرتبط بهذا العمل . فمثلا لايجوز للوالد أن يحرم عياله من رزقهم ليتصدق به على الناس لقوله عليه الصلاة والسلام لاتقبل صدقة المرء وأهله محاويج أو كما قال . فان حقيقة ذلك هو الرياء أو الشهوة الخفية كما قال امامنا الشيخ ابن عطاء الله السكندرى قدس الله سره .

وكذلك لايجوز للشخص أن يهمل عمله الذى أقامه الله فيه ليشغل نفسه بالانقطاع الى العبادة والتجرد والتنسك معتديا بذلك على رزق أولاده ومصالح الناس المنوطة به . فذلك كله انحراف عن القصد الصحيح الذى أراده الله للأعمال .

فالظلم اذن هو انحراف عن العناية الصحيحة . وصدق الله قوله فى الفاتحة « **اهدنا الصراط المستقيم** » فهو معيار العدل وعصمة من الظلم .

والظلم كما بيننا درجات . فمن الناس من هو ظالم لنفسه فحسب . ومنهم من هو ظالم للأقربين له . ومنهم من يظلم الناس جميعا ، ومنهم من يظلم الناس فى زمنه وفى أجيال مقبلة . كسياسى يزج ببلده فى حرب ظالمة ، أو كاتب يدعو الناس الى مايضرهم ويبقى مايكتبه فيهم بعد موته .

الا أننى أكتفى - عن كثرة الأمثلة فى هذا الموضوع الفسيح - بأن أضرب مثلا من عدل القضاء وظلمه .

يقول الله العلى القدير فى محكم كتابه :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ، أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا . »

«يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون . »

والقسط هو النصيب . أعطيت الشخص قسطه ، أى أعطيته نصيبه . ويقتضى ذلك ألا يجور المقسط على قسط آخر ، أى كنايه عن العدل وحسن التقسيم .

والشهداء جمع شهيد . وهو الذى يشهد فى أمر بأن يقرر مايستشهد به فيه . وليس ذلك قاصرا على الشاهد فحسب ، بل كذلك على الحكم الذى يلجأ اليه الناس يستشهدون برأيه بعد أن يطلعوه على واقعة ماهم مختلفون فيه .

وقد بينت الآيتين الكريمتين مايجب على المقسطين والشهداء - أى على القضاة ومن فى حكمهم من ذوى الرأى والمشورة والشهود وأهل الخبرة وغيرهم - فى أداء هذا العمل وطلبت منهم أن يكون قياما بالعدل ولله وجعلت الهدفين هدفا واحدا وعلى قدم المساواة بأن أحلتهما محل بعضهما فى الآيتين فتبادلا التقدم فيهما . ثم حرصت على بيان أهم أسباب عدم العدل والانحراف فى القضاء ونحوه ، على النحو الآتى :

١ - الانحراف شعورا بالنفس بقوله « **ولو على أنفسكم** » وهو أهم أسباب الظلم .

٢ - الانحراف بسبب القرابة بقوله « **أو الوالدين والأقربين .** »

٣ - الانحراف بسبب العطف الشخصى على أحد الخصوم ، اذ يجب أن يكون القاضى موضوعيا لايحسب حسابا لغير الظروف التى تتعلق بالدعوة ، كغنى الخصم أو فقره . فلا ينتصر للخصم تقديرا لغناه ولا يفرط فى العطف عليه بسبب فقره ، الا أن تكون الدعوة متعلقة بالمال ومطالبة هذا الفقير فان عنصر الفقر يكون من ضمن الوقائع التى ترتكز عليه الدعوى فى موضوعها . ولكن لايجوز العطف على قاتل لأنه فقير . اذ لا دخل للفقر فى مثل هذا الموضوع . ولذلك استدرك الله بقوله « **فان الله أولى بهما** » وليس للقاضى قياما عليهم خارج موضوع الدعوى .

٤ ـ الانحراف بسبب الهوى . ويدخل فيه أيضا الطمع فى رشـــوة أو نحوها .

٥ ـ الانحراف خوفا من نفوذ بعض الخصوم وخشية بطشهم . وقد أفرد الله لهذا السبب الآية الثانية لخطورته وغلظته . اذيجب على القاضى ألا يخشى فى الحق لومة لائم . وأن لايكون هيابا لحاكم أو عظيم .

ثم أن الله قرن الآيتين باسم « الخبير » لأن القاضى الظالم يتظاهر دائما بالنزاهة وحسن القصد . ولذلك ينبهه الله بأنه « **خبير بما تعملون** » لأنه مطلع على حقيقة القصد والنية فى العمل .

كما أن الآية تعرضت لأشهر جرائم القضاة ، وهى العدول عن الحق بأن أنذر بأنه خبير بما يعمله القاضى ، لأن الشارع أجاز للقاضى الامتناع أحيانا اذا لم يكن مختصا بنظر الطلب أو غير ذلك .

ويضيق المقام بالاستطراد فى سائر الاحكام المتعلقة بعدل القضاة ، وبما حوته السنة والآثار فى ذلك .

أما المظلوم فقد بين الرسول أن ليس بين دعوته وبين الله حجاب . كما انه قال من قتل تلقاء ماله فهو شهيد ومن قتل تلقاء نفسه فهو شهيد . وربما يكون الظلم الواقع على الشخص كفاءة له . كما أن وقوع الظلم على الشخص سند يجيز له رد العدوان بمثله لقوله تعالى « **من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** » وبقوله « **الله لا يحب الجهر بالسوء من القول الا من ظلم .** »

عصمنا الله من الظلم ووقانا شره ووفقنا الى الانابة الله وحسن الفعال .

وكيل المشيخة العامة

عن مركز شربين

أصدر سماحة السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية قرارا بتعيين الوجيه الفاضل الاستاذ يحيى محمد توفيق الشربينى وكيلا للمشيخة العامة عن بندر ومركز شربين .